الأسرى الأوروبيون في سجون إيالة طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الأول 1551 – 1711م

د. مفتاح مجيد الشريف(*)

كلية التربية – جامعة بني وليد

Summary

The phenomenon of prisoners goes back to a period much earlier than the period under investigation. It began to appear during the Crusades, especially after the beginning of weakness in the ranks of the Crusader forces, so they resorted to raiding the Arab coasts, especially in North Africa, and kidnapping and selling the population in Europe. Ibn Jubayr mentioned that in his voyage on 11 Dhu al-Qi'dah / 578 AH, when

(*) Email: Alnayd 65@gmail.com

the ship was docked on the island of Sardinia, when a passenger saw a sale of Muslim prisoners.

When the Muslims were expelled from Andalusia in 1492AD, and they were pursued and tortured by the Spanish, this led to a counter reaction by these expelled Muslims as well as their brothers in North Africa, where the resistance movement began to coalesce with the Ottoman tide in the region, and these states began after their annexation to The Ottoman Empire launched raids on the coasts of southern Europe and returned the prisoners.

The topic has been divided into five points as follows:

First: The conditions of prisoners inside prisons (bathrooms).

Second: The work of the prisoners.

Third: Positions held by the prisoners.

Fourth: Releasing the prisoners.

Fifth: Preparing the prisoner

مقدمة

شهدت منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط في النصف الثاني من القرن السادس عشر تطور ظاهرة الأسر، حيث كانت نتاجاً للصراع بين المسلمين والأوروبيين، والذي خلف وقوع أسرى بين الطرفين. وقد كانت إيالة طرابلس الغرب إحدى الإيالات العثمانية التي شاركت في عمليات الأسر. وفي هذا البحث نسلط الضوء على أحوال الأسرى الأوروبيين في طرابلس، ظروفهم المعيشية والصحية وحياتهم الدينية ونوع المعاملة التي يتلقونها والاعمال التي يقومون بها، وذلك حسب المصادر والمراجع المتاحة، والتي جلها أوروبية وهذا لعدم وجود مراجع محلية تتحدث عن هذه الفترة المهمة من تاريخ ليبيا باستثناء مرجعين فقط ، وهذا ناتج عن بعد المثقف الليبي عن دائرة الحكم في الإيالة. وقد قسم البحث إلى خمس نقاط رئيسه وهي كالتالي:

أولاً– أعداد الأسرى.

ثانياً– أوضاع الأسرى داخل السجون(الحمامات).

ثالثاً– عمل الأسرى.

رابعاً– المناصب التي تقلدها الأسرى.

خامساً– إطلاق سراح الأسرى.

أولاً– أعداد الأسرى.

إن أعداد الأسرى التي تم الحصول عليها من المراجع الأجنبية المتوفرة لا تشمل كل السنوات ، وذلك لشح هذه المراجع ، وانعدام المراجع المحلية ، كما أن نقصان بعض إحصائيات فئات معينة خلال فترات محددة راجع إلى عدم وجود علاقات لبلدانها مع السلطة في طرابلس . وعلى كل فإن الأعداد المتوفرة تعطي إشارات عن حجم أعداد الأسرى زيادةً ونقصاناً؛ وذلك يرجع لعدة أسباب كضعف نظام الحكم في طرابلس ، أو مواجهة قوة بحرية أوروبية تحد من حركة الأسطول البحري، أو انشغال القوى الأوروبية في حروب مع الدولة العثمانية.

ففي عهد درغوث باشا(1553م–1565م) والذي يتميز بكثرة الحروب مع جيوش وأساطيل الدول الأوروبية؛ كان عدد الأسرى كبيراً، فقد وصل إلى ثلاثة آلاف أسير[4]، وكان أغلب هؤلاء الأسرى وقعوا أثناء العمليات العسكرية مع القوى المسيحية وليس أثناء الغزوات البحرية.

وفي سنة 1584م عند قتل رمضان باشا والي طرابلس(1581م–1584م)، أبحرت زوجته إلى إستنبول وحملت معها ثمانمائة من نقد الدوكات، وأربعمائة مملوك مسيحي وأربعين فتاة، فاعترض سبيل مركبها الأميرال البندقي (بير إمو PIERRE EMO) ، فقتلوا 250 جندياً تركياً[5]، واستولوا على الأسرى المسيحيين، وأطلقوا سراحهم. ويشير عدد الأسرى الكبير الذي

بحوزة الوالي إلى ضخامة أعداد الأسرى التي تم الاستيلاء عليها في عهده، مقارنة بالنسبة البسيطة التي تؤول للوالي من إجمالي الأسرى.

أما في عهد سليمان صفر داي ، فقد شهدت حركة الغزو البحري نشاطاً مكثفاً خاصة ضد السفن الفرنسية، فخلال سنة 1615م يتواجد في سجن طرابلس مائة وخمسون أسيراً فرنسياً، تم القبض عليهم في السنتين الماضيتين. وقد ذكر أحد هؤلاء الأسرى أن الداي كان يتذرع بعدم وجود قنصل فرنسي في طرابلس[6] ؛ لإطلاق سراح هؤلاء الأسرى، وكذلك بعدم وجود سلام بين فرنسا وطرابلس حتى يتجنب مهاجمة السفن الفرنسية.

كما تميز عهد محمد الساقزلي بالاستقرار، حيث بلغت فترة حكمة ثمانية عشر عاماً (1631م-1649م) ، وانعكس هذا على تطوير قدرات الأسطول البحري، فقد كانت قوته تتكون من ستة إلى تسعة مراكب، وكانت السفن الكبيرة تحتوي على أربعين مدفعاً، ويمكنها حمل ثلاثمائة انكشاري بالإضافة إلى خمسين من الأسرى، أما المراكب الأصغر فقد كانت تحمل من عشرين إلى ثلاثين مدفعاً.[7]

وانعكس هذا على تطوير قدرات الأسطول البحري؛ مما أدى إلى كثافة الغزوات البحرية ، والتي كان مردودها الاقتصادي كبيراً جداً. فقد استطاع الأسطول البحري التصدي للسفن الإيطالية والهولندية والإنكليزية، والاستيلاء على جزيرة كورسيكا[8]، الأمر الذي أدى إلى قطع المواصلات بين البندقية وجزيرة كريت. كما نشر هذا الأسطول الرعب في سواحل صقلية وإيطاليا.

وخلال سنة1635م بلغ عدد الأسرى ما بين 400 إلى 500 أسير، وعند نهاية حكم محمد الساقزلي سنة 1649م بلغ عدد الأسرى 650 أسيراً، وقد بلغ اجمالي عدد الأسرى خلال فترة عهده تقريباً أربعة ألاف أسير.[9]

وخلال الفترة 1649م–1971م تولى حكم طرابلس عثمان الساقزلي وتميز عهده بالاستقرار وطول الفترة الزمنية التي قضاها في الحكم، عكس باقي الحكام الذين توالوا على حكم طرابلس، وكان لهذا تحقيق نوعٍ من الانتعاش الاقتصادي، والذي كان الغزو البحري أحد روافده الرئيسة الثلاثة. وينعكس الاهتمام بالأسطول البحري على الأعداد الكبيرة من الأسرى الذين تم جلبهم خلال الغزوات البحرية، ويذكر ابن غلبون بأنه "كانت له عدة سفن معدة للجهاد في غاية الاتقان والقوة والسلاح، ولم يضع منها شيئا طيلة مدة ولايته، وكانت أربعاً وعشرين عاماً، سوى سفينة غلبتها الريح وهي بأرض العدو، فانكسرت وأسروا من كان بها حياً".[10]

كما يشير أحمد النائب الأنصاري بأنه قام بتجديد القلاع، وترميم الدفاعات، واتخاذ الأساطيل، ومحاربة الأعداء . وقد بلغ عدد سفنه في فترة وجيزة أربعة وعشرين سفينة، وبلغت من ناحية الجودة والاتقان والاستعداد مالم تبلغه أساطيل من قبله، فغلب بها على البحر الرومي.[11]

ويذكر فيرو أنه عثر في مخطوط الطبيب الأسير على قائمة تحتوي على أعداد الأسرى خلال حكم هذا الوالي سنة 1671م، وهي كالتالي:[12]

اسم السجن	عدد الأسرى
أسرى السجن القديم	450 أسيراً
أسرى السجن الجديد	474 أسيراً
أسرى سجن القديس ميشيل	475 أسيراً
أسرى سجن القلعة وأسرى البيوت الخاصة	120 أسيراً
المجموع	1559أسيراً

وخلال فترة حكم عثمان الساقزلي بلغ عدد الأسرى ستة آلاف أسير لم يبقى منهم عند الثورة عليه سوى 1560أسير من مختلف الدول الأوروبية، منهم ستمائة من فرنسا.[13]وهذا

يتقارب مع العدد الذي ذكره فيرو في سبتمبر 1672م وكان يقارب الألفين.[14]

وبالرغم من قلة عدد سفن الأسطول الطرابلسي مقارنة مع أسطولي الجزائر وتونس؛ إلا أنه خلال فترة عشر سنوات(1668م-1678م) تمكن من تدمير مئة وأربعة مراكب مسيحية منها ثلاثة وثلاثون مركباً فرنسياً، كما تم أسر 2450 أسيراً مسيحياً[15]، والاستيلاء على كمية كبيرة جداً من البضائع التي تحملها هذه السفن.

وإزاء هذا الوضع الذي عطل حركة التجارة البحرية بين الشرق والغرب، فقد كان أمام الدول الأوروبية خياران: فأما أن تدفع الإتاوات لوالي طرابلس لسلامة سفنها أو تعرض سفنها للخطر، ولهذا لجأت هذه الدول إلى وسيلة لعلها تدفع بها هذا الخطر وهي القوافل البحرية المحمية بسفن مسلحة، وقد بدأ العمل بهذه الطريقة في 13 فبراير 1677م، حيث تتجمع السفن المتوجهة نحو الشرق في جزيرة كورفو[16]، ومن هناك تتجه إلى أماكن الوصول، وعلى التجار دفع 300 دوكات عن كل سفينة.[17]إلا أن هذا النظام لم ينجح حيث أنه خلال الفترة من 1681م - 1684م اتجهت قافلتان إلى ازمير وإستنبول وقافلة إلى قبرص وأخرى إلى الإسكندرية؛ وهذا دفع الدول الأوروبية إلى التفاوض مع الوالي في طرابلس، وتوقيع الاتفاقيات بخصوص هذا الأمر.

وفي سنة 1681م خلال فترة حكم الوالي حسن عبازة داي (1679م-1682م) هاجم الأسطول الفرنسي بعض قطع أسطول طرابلس والتي كانت متواجدة في بحر إيجه، وعقب ذلك جرت مفاوضات تمخضت عن اتفاق حول تبادل السفن والأسرى، واضطر حاكم طرابلس إلى إعادة السفن الفرنسية و800أسير فرنسي.[18] وتلى ذلك عقد معاهدة صلح وقعت في ساقز بتاريخ 25 اكتوبر 1681م[19] تقضي بعدم التعرض للسفن التجارية الفرنسية، وافتتاح قنصلية فرنسية في طرابلس.

وفي أواخر العهد العثماني الأول توالى عدد كبير من الولاة على السلطة، حيث يتعرضون إلى المؤامرات وأعمال التمرد والتي زادت بصفة غير معتادة، وكان سببها الرئيسي عدم التوافق بين الانكشارية والولاة، فكان الصراع على الاستحواذ على أكبر كمية من الأموال التي تجبى من المواطنين؛ ونتج عن هذا ضعف الولاية بصفة عامة والأسطول البحري بصفة خاصة، الأمر الذي ترتب عليه تقلص عمليات الغزو البحري. ففي سنة 1708م أعد قنصل فرنسا بولار poullar تقريراً في أبريل جاء فيه:(قمت بتغذية أربعمائة عبد تعرضوا لنيران قلعة طرابلس عند حدوث ثورة ضد خليل باشا والتي استمرت لمدة تسعة أيام).[20] وهذا يبين العدد الضئيل للأسرى في طرابلس.

ثانياً- أوضاع الأسرى داخل السجون(الحمامات).

تطلب ازدياد عدد الأسرى الناتج عن الاشتباكات الحربية مع أوروبا وكذلك عن عمليات الغزو البحري من إنشاء السجون (الحمامات) لإيواء هؤلاء الأسرى، كما التزمت السلطات بتوفير الغذاء والملبس والرعاية الصحية كما يتبين من الآتي:

ا- السجون (الحمامات):

استخدمت كلمة الحمامات للدلالة على السجون التي يقطنها الأسرى في طرابلس ، وهذه الكلمة لم تكن معروفه قبل قدوم الأسرى الأوروبيين، فالعرب يطلقون عليها الزنزانة وهي مكان لاعتقال الأسرى. وكان أول من شيد هذه المعتقلات هم الأوروبيون، ونقلها عنهم بحارة سلا والجزائر وتونس، ولكن التسمية نابعة من الأجواء داخل السجن كما يصفها برنيا حيث يقول "فإذا اقبل الليل تجمعوا في تلك الحجرات الكبيرة المحجوبة عن النور والهواء، والتي يطلقون عليها بحق حمامات؛ نتيجة حرارتها الخانقة التي لا تطاق والتي يزيدها سوءاً التدخين وأضواء المصابيح، والشجار وأنين المرضى"[21]. وعند نزول الأسرى على الشاطئ يتم تسجيل أسماؤهم في قائمة بحضور الباشا مع تحديد هويتهم ، والتي غالباً ما يخفونها خاصة اذا ما كانوا من

طبقة كبار التجار أو من ذوي المناصب العالية، ويمنح كل منهم مجموعة من الملابس ثم يودعون أحد السجون تحت مراقبة حارس يصدر أوامره إلى الموظفين التابعين له المكلفين بإدارة شؤون هذا السجن، وأما النساء والاطفال فيودعون في سجون خاصة بهم داخل القلعة.[22]

وفي عهد درغوث باشا[23] لم توجد أي حمامات في طرابلس خاصة بالأسرى، ولكنهم كانوا يوضعون فيما يعرف بالمطامير[24] ، وهي حفر في الارض تشبه الخنادق. ولما ازدادت عمليات الغزو البحري وكثر عدد الأسرى وتوفرت الأموال اللازمة لبناء سجون خاصة بالأسرى بوشر ببناء السجون، وهي كالتالي حسب إنشاؤها تاريخياً:

1- الحمام القديم: وأنشئ في سنة 1615م في عهد صفر داي، وهو يعتبر أول من أنشأ حماماً للأسرى، ومكانه قرب قصر درغوث[25]، وقد أطلق الأسرى على هذا الحمام أسم نوتردام دو روزير notredame du rosaire. [26] ، وعندما ازداد عدد الأسرى اضطر والي طرابلس إلى إنشاء حمام جديد.

2- **الحمام الجديد:** أنشأ في عهد الباشا محمد الساقزلي[27] وقد أطلق عليه الأسرى حمام القديس انطوان saint Antoine، وهو اسم رحبة القلعة التي يطل عليها هذا الحمام في اتجاه باب المنشية. وبدء في بناؤه سنة 1632م واستمرت عملية التوسعة حتى سنة 1640م[28]، ويبلغ طوله 36 خطوة وهو طويل وضيق ويتكون من غرف صغيرة تسمى مانجي وتعني الرفيق، وتسع كل غرفة من ستة إلى سبعة أفراد، ويستوعب الحمام أربعمائة وخمسون أسيراً تقريباً.[29]

3-**حمام القديس ميشيل saint Michel:** تم بناؤه في عهد عثمان باشا الساقزلي[30] في سنة 1664م في الأرض التي كان عليها قصر درغوث بالقرب من الحمام القديم، ويبلغ طوله أربعة وأربعين خطوة وخمس خطوات عرضاً ويتكون من 96 غرفة ويستوعب 672 شخص تقريباً.[31]

ويبدو أنه يوجد خطأ في قياسات المبنى، فلو افترضنا أن الخطوة تعادل متراً فإن مساحة المبنى تساوي 220 م2، وهذه المساحة من المستحيل أن تستوعب 675 فرداً إلا إذا كان يتكون من اكثر من طابق وهذا مالم يذكر.

4- حمام القلعة : وهو يختص بالنساء والأطفال وعبيد الباشا والضباط، وهم يأوون إليه ليلاً. وعادة لا يحتفظ الوالي بعدد كبير من الأسرى حيث يتخلص من الجزء الاعظم منهم بالبيع، ويحتفظ بذوي المهارات منهم مثل الأطباء والكتبة والنجارين.[32] ويذكر فيرو أنه في سنة 1671م بأنه كان عدد الأسرى عند الخواص بما فيهم أسرى حمام القلعة مائة وعشرين أسيراً فقط.[33]

5- حمام الفخ: تم بناؤه في عهد الباشا محمد الساقزلي، ويقع في أحد بساتين المنشية ، ويشبه في بنائه الحمامات الموجودة في تونس، وسمي بهذا الاسم لقيام الأسرى فيه بالأعمال الصعبة والشاقة، مثل صناعة الحبال التي تستخدم في السفن، والقيام بالأعمال الزراعية وقطع الصخور، والأسرى به أسوأ حالاً من النزلاء بحمامات المدينة. ويوجد بهذه السجون ما يقارب ستمائة شخص في سنة 1675م.[34] وتخضع هذه الحمامات إلى المسئولين عن حراسة المدينة وأبوابها، وقد كان الآغا المسؤول عن حمام سان أنطونيو مكلفاً أيضاً بمفتاح باب البحر.

ب- الملبس والمأكل:

عادة عند قدوم الأسرى يمنحون مجموعة من الملابس المختلفة، ففي سنة 1671م استعرض عثمان الساقزلي الأسرى الجدد، وقد منح كل منهم قبعة وقميص نوم وقطعة من القماش؛ ليحيك كل واحد منهم ثوباً وسروالاً[35]، كما يذكر أحد أسرى السفينة الانجليزية جيسوس يدعى توماس ساندر tomas sander بأن الأسير يمنح غطاءاً وهو أشبه بقطعة من شراع سفينة، وينام على سرير عبارة عن لوحة خشبية. وهذا في الحمامات العامة أما في حمام القلعة

والأسرى عند الخواص فيختلف الوضع، فهم يتمتعون بملابس أرقى من ملابس زملائهم في الحمامات العامة[36]، خاصة الأسرى الذين يعملون عند الوالي كالأطباء والكتبة والعاملين في ديوان الوالي.

وبالنسبة للأكل فيختلف حسب نوع العمل الذي يؤدونه الأسرى، فالأسرى الذين يقومون بأعمال صعبة ومرهقة، والتي تستهلك سعرات حرارية كبيرة كالتجديف فإنه يتكون من قطعة من الخبز مع عصير عنب[37]؛ حتى لا تخور قواهم خاصة عند عمليات المطاردة والمناورة أثناء الاشتباك مع سفن العدو. أما في الحمامات تكون الوجبة الرئيسية عبارة عن نصف كيلو من خبز الشعير وحساء القمح.[38] أما الطعام الذي يقدم للأسرى في حمام القلعة والأسرى عند الخواص فهو أفضل بكثير مما يتحصل عليه زملائهم في الحمامات العامة، فهم يتمتعون بثلاث وجبات في اليوم . وقد سمح للأسرى في الحمامات العامة أن يعملوا لحساب أنفسهم بعد ساعات الدوام،[39] التي تنتهي الساعة الرابعة مساء في الشتاء والخامسة في الصيف، ويمكن بواسطة هذا العائد أن يتمكنوا من الحصول على بعض الطعام .

ج- الأوضاع الصحية:

اهتم الولاة بتقديم الرعاية الصحية للأسرى عكس ما تروج له المصادر الأوروبية، حيث أن حياة الأسير مهمة بالنسبة للإيالة من ناحية إنسانية، ومن ناحية أن الأسير يمثل عند افتدائه أو بيعه أو استخدامه في العمل قيمة وثروة مهمة.

1- المستشفيات:

ففي هذا الصدد يذكر المؤلف المجهول "الطبيب البروسنفالي" الذي أُسر في سنة 1644م، ومكث في السجن لمدة ثماني سنوات، أن الباشا عثمان الساقزلي أنشأ الحمام الجديد، واستخدم

بعض قاعات قصر درغوث كمستشفى خاص للأسرى المسيحيين، حيث يقوم أطباء برعايتهم، كما اهتم بتغذية المرضى، حيث يتم توفير حصة يومية من اللحم لكل أسير مريض، وكانت تصرف لهم الأدوية من صيدلية القلعة.[40]

كما سمح الولاة في طرابلس للأوربيين ببناء مستشفيات لعلاج الأسرى، وهذا يدل على التساهل في تقديم الخدمات الصحية للأسرى، عكس ما يحدث لأسرى المسلمين في السجون الأوروبية، فقد قام القنصل الفرنسي لويس لامير lous lemaire ببناء مستشفى سنة 1704م، وذلك باستخدام أموال دفعتها طرابلس كفدية لتحرير أحمد بايندرلي وهو أحد رؤساء السفن، وكانت قيمة الفدية ألف سوكودو إسباني.[41] وفي رسالة من القنصل المذكور إلى البابا يذكر فيها أن الباشا خليل الأرناؤوطي قد منحه قطعة أرض مجاناً؛ لغرض إنشاء مستشفى عليها يسع خمسون سريراً، وأطلق عليه "مستشفى القديس لويس" [42]، وهذا يبين مدى التعاون بين ولاة طرابلس وقناصل الدول الأوروبية لخدمة ورعاية الأسرى.

2- الأمراض والأوبئة:

كانت تجتاح البلاد الكثير من الأمراض والأوبئة الفتاكة، والتي تخلف عادة آلاف الضحايا، وقد تعرض الأسرى للإصابة بهذه الأمراض، وكان اشدها فتكاً وباء الطاعون، والذي تعرضت له البلاد خلال فترات متتالية، ففي سنة 1644م انتشر هذا الوباء عن طريق أسرى تم جلبهم من تونس، وبلغ ضحاياه نحو ستة عشر ألفاً من السكان وثلاثمائة أسير[43]. وتكررت الإصابة بالطاعون في سنة 1675م عن طريق حجاج عائدين من مكة على متن سفن مصرية، وكان ضحاياه خمسين ألف شخص منهم أحدى عشر ألفاً من سكان مدينة طرابلس، كان من بينهم ثمانية من الأسرى المسيحيين[44]، وكان من بين الموتى سيدي عبدالحفيظ الصيد،[45] والداي مصطفى الكبير الاستنكويلي.[46]

كما انتشر وباء الطاعون في سنة 1690م، وفتك بأرواح الكثير من سكان طرابلس والدواخل، ومن ضمن الموتى الراهب دي مونريال di monreale رئيس الإرسالية الكاثوليكية ، كما توفى معه راهبان كانا يقدمان الرعاية الصحية للأسرى الذين أُصيبوا بعدوى الطاعون في سجون طرابلس.[47] وفي سنة 1706م خلال فترة حكم خليل داي داهم وباء الطاعون طرابلس، وامتد إلى الدواخل، وكانت أعداد الوفيات مرتفعة، حيث أودى بحياة العديد من جنود الجيش التونسي المحاصر لطرابلس بقيادة إبراهيم الشريف.[48] ويذكر فيرو بأن وفيات الأسرى المسيحيين من جراء هذا الوباء قد بلغت ستمائة أسير.[49]

د- الحياة الدينية:

لم يمانع ولاة طرابلس في قيام الرهبان الأوروبيين بتقديم الخدمات للأسرى المسيحيين، فقد طلب أسقفاً جيفالو وكاتانيا عند وقوعهما في الأسر من درغوث باشا بتخصيص مقبرة لدفن المسيحيين، وقد وافق على ذلك مقابل مكافأة مالية، وخصصت قطعة أرض بجنب الأسوار الشمالية للمدينة، قرب المكان المعروف باسم (القبة) في باب البحر.[50]

وفي عهدي محمد الساقزلي وعثمان الساقزلي تم منح الرهبان والمنظمات الدينية المسيحية العديد من التسهيلات، حيث أن أصول هذان الواليان من اليونان التي تدين بالمسيحية، فقد منحا رخصاً لمواطنيهما بإنشاء كنيسة خاصة بهم قرب باب البحر، سميت باسم القديس جورج تابعة لبطريق كنيسة الإسكندرية، والذي كان يرسل قسيساً يونانياً للعناية بها، ويتم الصرف علي الكنيسة ورجال الدين بأموال يتم التبرع بها من الأسرى والصناع والتجار المسيحيين.[51]

كما سمح الباشا محمد الساقزلي لإرسالية الفرنشيسكان بممارسة عملها في طرابلس، وفتح مقر لها، وإرسال الاسقف للقيام بواجباتهم تجاه الأسرى، والتي تتمثل في بث الروح الدينية فيهم،

والقيام بالصلوات والاحتفالات الدينية وتقديم الموعظة، ودعم الأسرى ومنعهم من التحول عن الدين المسيحي والدخول في الإسلام. وفي هذا الصدد فقد قام المسيحيون سنة 1641م بحث رابطة الدعوة المسيحية على إرسال مبعوثين إلى طرابلس، وهما الأب باسكوالي كومين Pascal والأب باسيفيكو pacifiaus – وهما من فرنسا– من أجل إفتداء وتحرير الأسرى، وإقامة مركز للإرسالية.[52]وقد استقبلا بالترحاب وسمح لهما بتأجير منزل للإقامة فيه وإنشاء كنيسة فيه، وقد سمح لهما بزيارة الحمام القديم وتقديم الدعم للأسرى.

وإضافة إلى ما سبق فقد سمح الداي مصطفى غروصو الاستنكويلي لتاجر من البندقية يدعى فرانشيسكو دي ماركو franceco de marco وقنصل فرنسا الفخري السيد إيثين Estienne للحصول على ترخيص لشراء فندقين يقعان بالقرب من الحمام القديم،[53]وضعا تحت تصرف الإرساليين النصارى.

ونلاحظ مما تقدم بروز روح التسامح التي اتسم بها الولاة في طرابلس تجاه هذه المؤسسات الدينية المسيحية، التي تقدم الدعم الروحي والمادي للأسرى وتعمل على إفتدائهم ؛ بالرغم من استمرار حالة الحرب بين المسلمين وأوروبا المسيحية، ويقابل هذا التسامح تعنتاً وصلفاً تجاه الأسرى المسلمين في سجون أوروبا.

هـ– معاملة الأسرى:

اتسمت معاملة الأسرى الأوروبيين بالتسامح في كثيراً من الأحيان، فقد منحوا حق ممارسة شعائرهم الدينية وبناء الكنائس واستقدام رجال الدين لدعم الأسرى معنوياً ومادياً، كما وافقت السلطة على إمكانية عمل الأسرى بعد انتهاء الدوام الرسمي، وذلك لتحقيق عائد مادي يحسن من أوضاعهم المعيشية، وقد تساء المعاملة عند ورود أنباء بالمعاملة السيئة التي يتلقاه الأسرى المسلمين في السجون الأوروبية.

ولعل إطلاق سراح الأسرى بدون فدية من الأعمال النادرة، والتي قام بها بعض ولاة طرابلس كمراد آغا، عندما أتم الأسرى بناء الجامع اطلق سراحهم[54]، وأرسلهم إلى أوطانهم، وهذا خير دليل على تسامح المسلمين، ولم يقابل المسلمون الأسرى بمثل هذه المعاملة. وفي عهد عثمان الساقزلي وبالي داي كانت معاملة الأسرى تتسم باللين والتسامح، وخاصة الأسرى الذين يتبوؤون مناصب رفيعة في بلدانهم، حيث كانوا يعفون من الأعمال الشاقة التي يؤديها الأسرى العاديون، ويذكر بعض الأسرى من فرسان مالطا هذه المعاملة الحسنة.[55]

إلا أن بالي شاوش قد اتخذ إجراءات اتسمت بالشدة، وألغى بعض التنازلات التي كانت في عهدي محمد وعثمان الساقزلي؛ وذلك عند ورود أنباء عن المعاملة السيئة التي يلقاها المسلمون في سجون ليفورنو ومالطا، فقد دمر كنيسة سان جورج المخصصة لليونانيين، كما دمر كنيسة الإرسالية الفرنشيسكانية،[56]وترك الأسرى يمارسون طقوسهم الدينية في الحمامات فقط، طبقاً لما يتلقاه الأسرى المسلمين في أوروبا. وعادة بعد فترة من الزمن يتم الغاء كل العقوبات والمعاملة المتشددة ضد الأسرى المسيحيين، والرجوع إلى المعاملة اللينة كما حدث في عهد إبراهيم داي، حيث أمر بالسماح للجالية اليونانية بإعادة بناء الكنيسة.[57]

وفي 24 نوفمبر 1701م قدم مركب من ميناء إيفورن الإيطالي وكان، أحد الركاب يحمل خطاباً بعث به أحد اليهود، أن الأتراك المسجونين في ميناء شيفيتا فيكيا civitta vecchia القريب من روما، يتعرضون لمعاملة سيئة؛ عندها أمر الداي مصطفى غاليبولي بالقبض على أربعة رهبان من أعضاء الجالية الفرنشيسكانية، وإيداعهم سجن القديس ميشيل لمدة عدة أيام، كما قبض على قسيسين وراهب من الإرساليين كان قد تم إفتدائهم ويتأهبون للرحيل، وزج بهم في السجن.[58] وفي هذا الصدد يذكر القنصل الفرنسي لومير أثناء النظر في الشكاوى والتظلمات من سلطات طرابلس، والتي تفيد بأن الأسرى المسلمين العاملين فوق قوادس فرنسا وقوادس جنوة

، يعاملون معاملة سيئة للغاية؛ وكان هذا سببا في رفض إطلاق الأسرى الفرنسيين خلال فترة حكم الداي خليل الأرنؤوطي(1702م-1709م).[59] مما سبق نلاحظ أن معاملة الأسرى الأوروبيين تتسم بالليونة والتمتع بأداء الطقوس والصلوات والاحتفالات الدينية، وبناء الكنائس وتقديم الرعاية الصحية اللازمة للمرضى، وإن المعاملة القاسية تكون كرد فعل على قسوة المعاملة التي يتلقاها الأسرى المسلمين في سجون أوروبا.

ثالثاً-عمل الأسرى:

يتم الاستفادة من الأسرى في شتى الأعمال كقوة عاملة مجانية، وتختلف طبيعة الأعمال التي يكلفون بها، من أعمال مدنية قد تكون شاقة مرهقة أو أعمال عادية، وبعض الأسرى يتم إجبارهم للقيام بأعمال لها صلة بالحرب كترميم وبناء القلاع، بل والمشاركة الفعلية في الحرب.

أ- الأعمال في المجال المدني:

يستخدم الأسرى في أعمال مختلفة حسب الحرف التي يتقنونها، أما الأسرى الذين لايمتهنون حرف معينة، فيتم تشغيلهم في الأعمال الصعبة عادة، كقطع الحجارة والأعمال الأخرى، ويبدأ يوم الأسرى بجمعهم في صفوف منتظمة تحت الحراسة، ويتم السير إلى أماكن العمل المختلفة، فمنهم من يوجه إلى مقالع الحجارة في قرقارش، والتي تبعد ميلاً تقريباً عن مكان الإقامة، ومجموعة أخرى تتوجه نحو محاجر منطقة الهنشير شرق المدينة [60]. ويطلب من الأسرى قطع عشرة قطع كل يوم، ويبلغ حجمها قدمين مربعين، وقد يتعرض بعضهم للموت من جراء هذا العمل المرهق. ويشتغل البعض الأخر من الأسرى في أفران الجير، وأعمال الزراعة، والبناء، وقطع الخشب، واستخراج الماء، وتفريغ المجاري، وفي موسم الغزوات البحرية يتم استخدام الأسرى في شحن السفن بالمياه والتموين والسلاح.[61]

وبالنسبة إلى أسرى الوالي فإن أوضاعهم أفضل بكثير من عامة الأسرى ، حيث إن عملهم غير مرهق، مثل: الأطباء، والكتاب، والمترجمين، والنجارين الذين يشرفون على بناء

السفن، وكذلك المكلفين بإنارة القلعة ليلاً[62]، إضافة إلى عمال النظافة فهم احسن حالاً من أسرى الحمامات. والأسرى عند الخواص بعضهم يقوم بأعمال مرهقة كأعمال الزراعة والاهتمام بشؤون المزارع، كجمع الثمار ونقلها، وبعظهم الآخر يقوم بأعمال مختلفة لحسابه الخاص بشرط أن يخصص نسبة من دخله اليومي لسيده.

ب- الأعمال في المجال الحربي:

ولعل من أكثر الأعمال ارهاقاً هو التجديف على ظهر السفن ، حيث إن السفن المستخدمة في الغزوات البحرية تزود بالمجاديف إضافة إلى الأشرعة ، فهي تحتاج إلى السرعة والمناورة عند الاشتباك والمطاردة، الأمر الذي لا توفره طاقة الرياح عند سكونها، أو تغيير اتجاهها. ويتطلب هذا العمل بذل جهد كبير وبصفة مستمرة لمدة طويلة في أغلب الاحيان. فيذكر الأسير توماس ساندر Tomas Sander الذي مر بهذه التجربة: (قيدنا بالسلاسل كل ثلاثة إلى مجداف وكُنا نقوم بالتجديف عراة ما فوق الحزام، وكان رئيس الطاقم ورئيس العمال يتحركون ، أحدهما أمام الساري والأخر خلفه، ممسكاً كل واحد منهما بسوط من عصب البقر، ويقومون بضرب الأسرى بدون سبب. وكانوا يغطون كل واحد منا نصف رطل من الخبز وماء فقط، وكانت أيدينا مثبته بالسلاسل بطريقة قاسية، ولم يكن بمقدورنا أن نبعد أيدينا عن بعضها لأكثر من قدم، وقد استمرت مطاردة السفينة اليونانية لمدة ثلاث ساعات متواصلة).[63]

وقد عانت نسبة كبيرة من الأسرى من هذا العمل المضني، الذي يدفع فيه الإنسان إلى الحد الأقصى الذي تسمح به المقاومة البشرية، سواء كانوا أسرى مسيحيين على سفن طرابلس أو أسرى مسلمين على السفن الأوروبية. وخلال المفاوضات بين فرنسا وطرابلس حول الأسرى سنة 1685م، ذكر أن القسم الأكبر من الأسرى الفرنسيين والأجانب الذين أسروا من على سفن

تحمل العلم الفرنسي، يعملون الآن على متن سفن حربية تابعة لطرابلس، بحيث يتعذر تسليمهم حالياً إلى السفن الفرنسية.[64]

ومن الأعمال الشاقة أيضاً – والتي يستخدم فيها الأسرى بصورة شبه مستمرة– أعمال البناء وترميم الحصون والدفاعات، وكان أول من بنى مسجداً كبيراً جميلاً في ضاحية تاجوراء هو مراد آغا، وقد استخدم الأسرى في بنائه، وجلب 48 عموداً من لبدة[65] لاستخدامها في هذا المبنى الجميل.

ونظراً لتوفر أعداد كبيرة من الأسرى عند درغوث باشا، ولم يتم بيع أو افتداء أعدادٍ منهم؛ فاستغل هذه القوة العاملة المجانية في تحصين مدينة طرابلس، خاصة وأن الحروب كانت على أشدها مع أوروبا وفرسان مالطا، وقد قام ببناء قصر جميل من دورين مفصولين بالشرفات والأروقة، وتحيط به الحدائق الجميلة قرب باب البحر، وكذلك شيد جامعاً سنة 1554م.[66]

وفي مجال بناء القلاع والحصون وترميمها، فقد استخدم الأسرى في البناء، حيث قام عثمان باشا الساقزلي عند حملته على بنغازي التي تكونت من 500 من الفرسان براً، وأثنا عشر قادساً بحراً تنقل ثلاثمائة من الأسرى النصارى، بقيادة يوسف بك، وقد استخدم الأسرى النصارى في بناء قلعة[67] استغرق العمل بها سنة كاملة. وفي هذا الصدد فقد خرج رجب بك قائد جيش عثمان الساقزلي سنة 1667م، في حملة تألفت من 1500 من الجنود، يقتادون ثلاثمائة من الأسرى النصارى، وكانت وجهتهم قرية ككلة؛ وذلك لترميم قلعتها ووضع حامية بها.[68]

وفي سنة 1673م قام الداي إبراهيم المصري بالعمل على استكمال التحصينات التي بدأها بالي داي في واجهة طرابلس البحرية، والتي شملت على المنطقة بين حصن درغوث وضريح المرابط سيدي انديش، وسد الفراغ حتى حصن المندريك، واستخدم الأسرى في القيام بهذه الأعمال المرهقة، والتي استمرت لمدة ثلاثة اشهر.[69]

كما استخدم الأسرى في المساندة في العمليات العسكرية، كنقل المعدات العسكرية الثقيلة في الصحراء ولمسافات طويلة، فقد استخدم الأسرى في إحدى الحملات لقمع تمرد قام به المواطنون، حيث كلفوا بجر أربع قطع مدفعية من عيارات كبيرة، ولمسافة عشرين ميلاً[70].

وفي حملة عثمان الساقزلي على أوجلة في سبتمبر 1635م،كان ضمن الحملة مئتان من الأسرى المسيحيين، والذين كلفوا بنقل العديد من المواد، ومنها جر المدافع في الصحراء فوق الرمال المتحركة، وقد واجهوا في ذلك صعوبة كبيرة ، فاضطروا إلى حمل المدافع باستخدام عصى طويلة وحبال ، وقد تم تحميل ركائز المدافع وشحنات الذخيرة على الإبل.[71]

وإضافة إلى هذا فقد شارك الأسرى في العديد من العمليات العسكرية، سواء كانت في الغزوات البحرية على ظهور السفن، أو لكبح الثورات التي تحدث بين الحين والآخر داخل ولاية طرابلس، حيث إن بعض الأسرى يستعان بهم في العمليات الحربية خاصة المحترفين منهم، وتمنح لهم نسبة مئوية من الغنائم وهي متروكة لتقدير الرياس وسخائهم.[72]وفي مايو 1584م عند محاولة القبض على السفينة الانجليزية جيسوس، لم يتمكن المدفعيون من إصابة السفينة وهي تشرع في الإبحار، فأرسل الباشا أحد الضباط إلى السجن للإعلان عن مكافئة مالية قدارها مائة كورون، وإطلاق سراح من يصيب السفينة، وقد نجح أحد الأسرى الإسبان في إصابة السفينة ، غير أنه لم يطلق سراحه.[73]

كما يذكر ابن غلبون أنه عند ثورة الجند على عثمان الساقزلي، استعانوا بمجموعة من الأسرى الإفرنج ، حيث قاموا بحفر نفق لوضع لغمٍ بداخله بالقرب من دار عثمان، وذلك بهدف تدميرها وقتل عثمان، إلا أن علي الجربي شعر بهم ، فحفر حتى لاقاهم وهربوا وفشلت خطتهم.[74]

وفي أغسطس 1701م أعلن الانكشارية الثورة على الداي عثمان القهوجي، وعينوا

مصطفى غاليبولي بدلاً منه. وقد استخدم هؤلاء الجنود خمسة وعشرين من الأسرى المسيحيين للعمل على المدفعية، كما قام ثلاثمائة من الانكشارية بتسلق الأسوار بمعونة عدد كبير من الأسرى الذين جيء بهم من السجن، إلا أن المحاصرين اسقطوا عليهم قنبلتين يدويتين؛ أدتا إلى تشتيتهم.[75]نلاحظ هنا أن الأسرى يتم الزج بهم في الصراعات على الحكم، والتي زادت وتيرتها في الربع الاخير من القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر.

كما أن بعض الولاة قد استخدموا أعداداً كبيرةً من الأسرى كقوة يمكن استخدامها للدفاع عن ملكهم، فعند هزيمة أسطول خليل باشا في سنة 1709م من قبل الأسطول المالطي، وقتل ثلاثمائة من الرجال وأسر أربعمائة جندي انكشاري، فكر الأسرى الذين تم تسليحهم من قبل الباشا للدفاع عنه، بأن يسيطروا على القلعة ، إلا أن هذا الأمر لم يحدث وذلك بسبب تدخل القنصل الفرنسي بولارد.[76]

رابعاً: المناصب التي تقلدها الأسرى:

أُتيحت الفرصة للأسرى بعد دخولهم الإسلام بتقلد مناصب رفيعة في الدولة وصلت إلى رئيس الدولة، ورئيس الأسطول، وغيرها من المناصب، والتي كانت بعيدة المنال على الأسرى المسلمين في السجون الأوروبية. وقد شملت المناصب عدة مجالات كالآتي:

أ- الولاة:

توصل بعض الأسرى بعد دخولهم الإسلام إلى تبوء مناصب عالية في الدولة، وصلت إلى رئيس الإيالة، وغالباً ما يكون وصولهم إلى هذا المنصب الرفيع عن طريق انخراطهم في سلك الجندية، وعند إثبات جدارتهم في مجال عملهم يتم ترقيتهم إلى مناصب عليا حتى الوصول إلى منصب الوالي، ومما ساعدهم على ذلك هو أن الولاة الأتراك يحبذون التعامل مع العنصر الاجنبي وإبعاد العنصر المحلي عن المراكز المهمة في الولاية.

1- مراد آغا.

فقد كان أول والي عثماني لطرابلس ، وهو كان مسيحياً من مواليد مدينة (راجوز)، حيث أسره الأتراك في صباه ونقل إلى الأستانة، وقام سيده بإهدائه إلى (زليمة) احدى حريم السلطان سليم الأول، وعند وفاتها ورث أموالاً طائلة، وأصبح حراً، واتجه إلى العمل العسكري، وأصبح قائداً لسفينة حربية ثم عين حاكماً لطرابلس[77].

2- علج علي أوشالي:

أو علي الفرطاس، كان راعي خنازير في كالابريا بإيطاليا، وأسره الاتراك وعمره خمسة عشر عاماً، وقد دخل الإسلام، وشارك في الحروب البحرية تحت إمرة درغوث باشا، ثم أصبح والياً على طرابلس بعد وفاة درغوث عام 1566م[78].

3- عثمان الساقزلي:

يوناني من جزيرة شيو، كان ضمن رقيق الداي شريف بطرابلس، أعتقه، وعينه قائداً بساحل آل حامد؛ لجمع العشر وضرائب الشجر[79]، وعند تولي محمد الساقزلي إيالة طرابلس قربة منه، وكلفه قائداً عاماً للجيش (بك)، وبعد وفاته أصبح عثمان باشا والياً على طرابلس سنة 1649م.

ب- قادة الاسطول:

كان أغلب قادة الاسطول من المستجدين في الإسلام وأكثرهم من الأسرى.

1- بيرم:

يعرف ببير أوب pierre aube وهو أحد الأسرى، الذي ما لبث أن أصبح قائداً لأسطول طرابلس. ولد في قرية سيفورsix-fovrs قرب طولون جنوب فرنسا سنة 1609م، وعمل نوتي على مركب، ثم أُسر من قبل الأسطول التونسي، حيث اعتنق الإسلام، ثم توجه إلى طرابلس[80].

وقد اشترك في معركة الدردنيل البحرية ضد البندقية في17 يوليه سنة 1657م، و برزت شجاعته وقدرته على القيادة إبان هذه المعركة؛ الأمر الذي دفع عثمان باشا الساقزلي إلى تعيينه في منصب أميرال الأسطول الطرابلسي[81].

2- حسين قبطان:

من المستجدين في الإسلام ويرجع أصله إلى كالابريا بإيطاليا، وقد تمكن من جمع ثروة طائلة من وراء أعمال الغزو البحري؛ الأمر الذي مكنة من الحصول على لقب أميرال الولاية الأكبر، وقد بنى قصراً جميلاً في ضاحية المنشية ، كما بنى مسجداً في سنة 1688م بالقرب من قصره ذا قباب ومأذنة غاية في الروعة.[82]

وإضافة إلى هذا فإن أغلب قادة الأسطول من الأسرى الذين تم عتقهم بعد دخلوا في الإسلام ، وكان من بينهم ريس مراد الهولندي الأصل، وشعبان ويرجع أصله إلى دانكرك من ساحل المانش بفرنسا، ومصطفى كامبانا وهو من أصل إسباني، و علي وأصله من اليونان[83]. كما تبوأ العديد منهم مراكز قيادية في الجيش، كمراد المالطي والذي كان حاكم غريان، ثم تولى قيادة الجيش الإنكشاري في فترة حكم حسن عبازة.[84]

ج: الادارة والمالية:

نجد أن أغلبية الموظفين من النصارى أسوة بباقي القطاعات، فالباشا محمد الساقزلي أحاط نفسة بمجموعة من ذوي الأصل النصراني؛ وذلك اعتقاداً منه بأن هذا الأمر يضمن له الاستمرار في السلطة لفترة طويلة. فولى منصب مدير المالية إلى شخص يدعى محمود الكيخيا، والذي يرجع أصله إلى جزيرة سردينيا. وأوكل أمر أمانة صندوق القصر إلى رمضان النابلي، وأصله من مدينة نابلي الإيطالية، كما استخدم عدداً من الأطباء الأسرى منهم أسير برتغالي، وآخر من كالبريزيا بإيطاليا ويدعى فرنسوا أرفييتي[85] (francois arfietti).

وفي هذا الصدد يذكر ابن غلبون في كتابه التذكار أن عثمان باشا الساقزلي "لم يُولّ في حاشيته متأصلاً في الإسلام منصباً "[86]، كما أن بالي داي (1673م) استخدم كاتباً من البندقية يسمى محمد [87]، حيث إن الولاة كانوا يستعينون بكتبة من أوروبيين لعلمهم بلغاتهم الأم، والتي كانت ضرورية لتحرير الرسائل والمكاتبات مع هذه الدول.

خامساً: إطلاق سراح الأسرى:

قامت الإرسالية الفرنشيسكانية بدور كبير في إفتداء الأسرى ، حيث كانت تقوم بحملات إعلامية هدفها جمع التبرعات؛ لغرض تقديم الدعم للأسرى وإفتداؤهم، كما كانت توجد طرق أخرى لإطلاق سراح الأسرى كالتلويح بالقوة واستخدامها، والهروب والمكافئة على العمل وهذا نادراً ما يحدث.

فقد قام مراد آغا بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين بعد إتمام بناء المسجد في تاجوراء ، والذي تميز بجماله ودقة بناؤه، وكان هذا مكافأة لهم على عملهم[88].كما قام الباشا محمد الساقزلي في سنة 1945م بإطلاق سراح صانع السفن (باترون اوجر) الخبير البروفنسالي الذي قام ببناء أربع سفن حربية، وزوده بالهدايا وأرسله إلى أوروبا.[89]

كما انتهز العديد من الأسرى فرصة الهروب كلما واتت الظروف الملائمة، ففي فترة حكم الباشا عثمان الساقزلي كان الأسري يرسلون إلى منطقة رأس الهنشير لاقتلاع الحجارة منها، وتحميلها على مركب كبير، فتمكنوا من الهرب والتوجه إلى مالطا، وكان عددهم يناهز الخمسين[90].وفي 13 يونية 1673م هرب مجموعة كبيرة من الأسرى المسيحيين المكلفين باستخراج الملح من ملاحات زوارة [91]، وكانوا تحت إمرة صهر عثمان الساقزلي، الذي هرب بهم إلى روما، وارتد عن الإسلام.

أما تحرير الأسرى عن طريق دفع الفدية فقد كان الأكثر شيوعاً، حيث إن الهدف الرئيسي من الأسر هو الحصول على المال. ففي يوليو 1561م أُطلق سراح أسقف كاتانيا نيوكولو ماريا كراشيولو nicolo maria caracciolo مقابل فدية كبيرة بلغت ثلاثة آلاف سوكودو[92]. وفي سنة 1641م إبان حكم محمد الساقزلي فقد قام مبعوث فرنسا بتحرير خمسين أسيراً فرنسياً فقط من إجمالي 1350 أسيراً، حيث لم يتمكن من سداد كامل المبلغ الذي طلبه الباشا والبالغ 400 الف قرش.[93] ويلاحظ هنا أن تحرير كامل الأسرى قد لا يتحقق، حيث إن المبالغ الطائلة التي يطلبها الباشا قد يتعذر جمعها، فيكتفى بتحرير عدد معين من الأسرى، بل إن بعض الدول قد حددت مبلغاً معيناً من المال لا يمكن تجاوزه كفدية لكل أسير، فقنصل هولاندا حدد 300 قرش[94] كأعلى سعر للرأس الواحدة. وفي حالة تبادل الأسرى يتم التبادل رجل مقابل رجل، وفي حالة الزيادة يتم تقدير مبلغ يتفق عليه، كما حدث في ولاية محمد باشا الإمام حيث قدرت قيمة الفدية بين المسلمين والنصارى بمبلغ 150ريالاً.[95]

وفي نهاية القرن السابع عشر ازداد نشاط الأساطيل الأوروبية وخاصة الفرنسية والانجليزية في ممارسة الضغط العسكري؛ لإرغام طرابلس على تسليم الأسرى، والتوقف عن عمليات الغزو البحري ضد رعاياها، ففي 9 اغسطس 1669م أرسلت فرنسا أسطولها بقيادة الأميرال دلميراس dalmaras، وهدد بقصف مدينة طرابلس؛ حيث أرغم الباشا على إطلاق سراح خمسة وعشرين أسيراً فرنسياً[96]. وفي سنة 1682م تم تسليم تسعين أسيراً فرنسياً إلى ممثل فرنسا مجاناً؛ نتيجة تهديد من قائد الأسطول الفرنسي الأميرال دكسن[97]، وإضافة إلى هذا فقد تم إطلاق سراح 1200 أسير من مختلف الجنسيات الأوروبية؛ إثر قيام الأسطول الفرنسي بقصف طرابلس في 27يونيو 1685م.[98]

ونتيجة لتفوق بعض القوى الأوروبية خاصة فرنسا؛ فقد أجبرت الباشا في طرابلس على عقد عدة اتفاقيات نصت بنودها الرئيسة على تحرير الأسرى، وعدم التعرض للسفن الأوروبية وخاصة الفرنسية، إضافة إلى منح تسهيلات تجارية لهذه الدول. ففي 15 مارس 1676م اضطر الداي إبراهيم إلى توقيع اتفاقية مع بريطانيا؛ تم على إثرها إطلاق سراح جميع الأسرى الإنجليز ورعايا بريطانيا بدون دفع أي فدية.[99] كما تم في سنة 1684م توقيع اتفاقية مع هولندا عقب مباشرة القنصل الهولندي لمهامه وتضمن أهم بنودها عدم التعرض للسفن التجارية الهولندية مقابل دفع مبلغ مالي سنوياً.[100]

وفي 21يوليو 1692م قام الأسطول الفرنسي بقيادة دي ريبير يت بالهجوم على طرابلس، بعد أن نقض محمد الأمام الصلح مع فرنسا، وألقى 1500 قنبلة؛ مما أدى إلى نزوح السكان، وعندما فشلوا في تحقيق أهدافهم انسحبوا 3 اغسطس 1692م.[101] وعلى إثر هذا النزاع فقد اقترحت الدولة العثمانية على طرابلس قبول الصلح مع فرنسا، وقد قدم الباستيون قائد الأسطول الفرنسي إلى طرابلس، وتم توقيع اتفاقية في 27مايو 1693م.[102] ويلاحظ أنه عند توقيع هذه الاتفاقيات؛ تقلص عمليات الغزو البحري، وبالتالي انعكس هذا على تناقص أعداد الأسرى، الأمر الذي أدي إلى فقدان طرابلس لأحد روافد اقتصادها الرئيسية.

وبالنسبة لأسعار الأسرى فقد تراوحت من 200 إلى 600 سكودو، وذلك حسب أعمارهم وصحتهم وجمالهم ومهاراتهم. والجدول التالي يبين تفاصيل أسعار الأسرى.[103]

النوع	السعر
فدية الريس البحري	من 500 إلى 600 سكودو
الكاتب والمرشد	من 300 إلى 400 سكودو
البحار والجندي	من 250 إلى 300 سكودو
رقيق عادي	ما لا يقل عن 200 سكودو
التجار والطبقة المتوسطة والفرسان	الأسعار ترتفع وفق الجهة المفتدية

مما سبق نخلص إلى النتائج التالية:

تذبذبت أعداد الأسرى، وذلك لعدة أسباب: فهي تعتمد على قوة الأسطول الطرابلسي، واستقرار البلاد، وكذلك على أوضاع الدول الأوروبية من حيث استقرارها أو انشغالها في الحروب، وقد تقلصت أعداد الأسرى في مطلع القرن الثامن عشر، حيث برزت قوتان أوروبيتان هما فرنسا وبريطانيا حدتا من ذلك.

عند ازدياد أعداد الأسرى يتم التوسع في إنشاء مباني خاصة لإقامتهم أطلق عليها اسم الحمامات، حيث يتم تقديم الملابس ووجبات الأكل للأسرى، ويتاح لهم العمل الخاص، والذي يدر عليهم مبلغاً من المال يحسنون به إعاشتهم. كما تلقى الأسرى العناية الصحية من حكومة الإيالة ومن الإرساليات المسيحية، والتي أقامت المستشفيات، وأوفدت الأطباء. وعلاوة على ذلك فقد سمحت سلطات طرابلس بحرية العبادة للأسرى وإقامة الكنائس، واستقدام القساوسة. وقد تجلت روح التسامح في التعامل مع الأسرى.

يعمل الأسرى الحرفيون عادة لدى الوالي، مثل: النجارين والكتبة والبحارة، وهم أحسن حالاً من عامة الأسرى، الذين يقومون بأعمال شاقة ومرهقة. وقد أُتيحت الفرصة لمن دخل الإسلام منهم بتبوؤ أعلى المناصب، وهذا مالم يكن متاحاً للأسرى، المسلمين في سجون أوروبا.

وقد تنوعت طرق إطلاق سراح الأسرى حيث شملت الهروب والمعاهدات، إضافة إلى الافتداء، وتبادل الأسرى، وكان هذا الهدف الرئيس من الأسر.

الهوامش

1-مارمول كرنجال: افريقيا،ج3، ترجمة محمد حجّي وآخرون،(الرباط، دار المعرفة للنشر،1989م)، ص123.

2-محمد مصطفى بازامة: ليبيا في عشرين سنة من حكم الأسبان1510م-1530م، (طرابلس، منشورات مكتبة الفرجاني، 1965م)، ص62.

2-نيقولاي ايفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516م-1574م، ترجمة يوسف عطاالله،(ط1، بيروت، دار الفارابي، 1988م)، ص212.

4- كوستانزيو برنيا: طرابلس من 1510 إلى1850، ترجمة خليفة محمد ،التليسي،ط1،(مصراتة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 1985م) ، ص 58.

5- عزيز سامح: الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، ترجمة عبدالسلام أدهم،(بيروت ، دار لبنان للطباعة والنشر، د.ت)، ص95.

6- جان كلود زليتز: طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط أفريقيا1500-1795م، ترجمة جادالله عزوز الطلحي (مصراته، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 2001م) ص237.

7- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 123.

8- ماساي: الوضع الدولي لطرابلس الغرب، نصوص المعاهدات الليبية الفرنسية إلى نهاية القرن التاسع عشر، ترجمة الدكتور محمد مفتاح العلاقي، (طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1991م) ص 78.

9- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص ص 124-144.

10- محمد بن ابي خليل ابن غلبون الطرابلسي: تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيما ملك طرابلس وما كان بها من أخبار، تحقيق الطاهر احمد الزاوي،(القاهرة، المطبعة السلفية، 1349هـ) ، ص125.

11- احمد النائب الانصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي،ج1 (طرابلس،منشورات مكتبة الفرجاني، دت) ، ص 239.

12- شارل فيرو، شارل فيرو: الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق الدكتور محمد عبدالكريم الوافي، (ط1؛ بنغازي،منشورات جامعة قاريونس، 1994م) ، ص 165.

13- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص170.

14- شارل فيرو، مرجع سابق، ص 172.

15- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 165.

16-جزيرة كورفو CORFUO احدى الجزر اليونانية، شارل فيرو، مرجع سابق،ص130.

17- جورجو كابوفين: طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر، عبدالسلام مصطفى باش امام، (طرابلس، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، دت) ، ص 34.

18- نيكولاي ايليتش بروشين: تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة عماد حاتم، (طرابلس، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005م)، ص 99.

19- ماساي، مرجع سابق، ص 47.

20- جان كلود زليتز، مرجع سابق، ص 341.

21- كوستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص187.

22- نفس المرجع، ص185.

23- درغوث باشا تولى حكم طرابلس ستة 1553م، قاد حملات ضد الإسبان وفرسان مالطا، شيد جامعاً وأنشأ سراي كبيراً وأحاطه بالحدائق وحصن القلعة، توفي أثناء حصار مالطا ودفن بطرابلس سنة 1565م. شارل فيرو: مرجع سابق، ص ص 111-127.

24- خليفة محمد التليسي: حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، (ط1؛ طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1997م)، ص 99.

25- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق ، ص97.

26- شارل فيرو: مرجع سابق، ص 146.

27- محمد الساقزلي من جزيرة ساقز اليونانية كان يدعى يوحنا سوفيني، سافر إلى الجزائر وأصبح قبطان على سفينة حربية، ثم قدم إلى طرابلس واستعان به رمضان آغا، ومكنه من الحكم بعده سنة 1631م واستمر حتى 1649م. نفس المرجع السابق، ص144.

28- نفس المرجع، 146.

29-خليفة محمد التليسي، مرجع سابق، ص99.

30- عثمان الساقزلي يوناني الأصل من جزيرة ساقز واسمه ليوني leoni، ركب سفينة تجاريه استولى عليها مامي ريس وأصبح أسيراً من نصيب مصطفى شريف داي والذي اختاره رئيساً لجيشه، ثم اختاره محمد الساقزلي بكً، وتولى حكم طرابلس بعده في 1649م، شارل فيرو ، مرجع سابق، ص 154.

31- نفس المرجع، ص98.

32- ابن غلبون ، مرجع سابق، ص 107.

33- شارل فيرو، مرجع سابق ، ص 169.

34- خليفة محمد التليسي، مرجع سابق، ص 98.

35- شارل فيرو، مرجع سابق، ص 168.

36- جان كلود زليتز: مرجع سابق، ص231.

37- نفس المرجع، نفس الصفحة.

38- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 186.

39- نفس المرجع، نفس الصفحة.

40- خليفة محمد التليسي، مرجع سابق، ص 95.

41- اتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة خليفة محمد التليسي،(ط2؛ طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1991م)، ص316.

42- شارل فيرو، مرجع سابق، ص 244.

43- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 133.

44- اتوري روسي، مرجع سابق، ص295.

45- عبد الحفيظ الصيد: توفي 1085هـ-1675م وهو من عائلة الصيد التي تنتمي إلى قبيلة بني رقيعة، ونالت هذه العائلة احترام الناس والولاة لما لها من الورع والتقوى، وكان جده محمد الصيد المتوفي سنة 1050هـ1640م والذي عاصر سليمان داي وقد كانت له كرامات وسُمِّى بالصيد لدفاعه عن المستضعفين وردعه للظلم وقد أخذ الطريقة عن سيدي بن محمد التلمساني. أحمد النائب الانصاري، مرجع سابق، ص238.

46 - نفس المرجع ، ص251.

47- شارل فيرو، مرجع سابق ، ص 225.

48- أحمد النائب الانصاري، مرجع سابق، ص 281.

49- شارل فيرو، مرجع سابق ، ص 224.

50- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق ، ص65.

51- خليفة محمد التليسي، مرجع سابق، ص 99.

52- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق ، ص137.

53- شارل فيرو، مرجع سابق ، ص 192.

54- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق ، ص57.

55- خليفة محمد التليسي، مرجع سابق، ص 98.

56- اتوري روسي، مرجع سابق، 291.

57- خليفة محمد التليسي، مرجع سابق، ص 99.

58- شارل فيرو، مرجع سابق ، ص 241.

59- نفس المرجع، ص244.

60- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق ،ص 186.

61- نفس المرجع، ص176.

62- جان كلود زليتز، مرجع سابق، ص231.

63- ماساي، مرجع سابق، ص55.

64- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 57.

65- نفس المرجع، ص 58.

66- نفس المرجع ، ص 128.

67- شارل فيرو، مرجع سابق ، ص 167.

68- نفس المرجع ، ص186.

69- نفس المرجع، نفس الصفحة.

70- نفس المرجع، ص149.

71- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 185.

72- جان كلود زليتز، مرجع سابق، ص 228.

73- ابن غلبون، مرجع سابق، ص 127.

74- شارل فيرو، مرجع سابق، ص238.

75- نفس المرجع، ص 239.

76- رودلفو ميكاكي: طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، ترجمة طه فوزي،(طرابلس، دار الفرجاني، د.ت)، ص8.

77- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص ص 41-42.

78- شارل فيرو، مرجع سابق، ص 128.

79- ابن غلبون، مرجع سابق، ص 106.

80- شارل فيرو، مرجع سابق، ص 158.

81- نفس المرجع، ص 159.

82- اتوري روسي، مرجع سابق، ص 300.

83- شارل فيرو، مرجع سابق، ص 168.

84- اتوري روسي، مرجع سابق، ص 299.

85- شارل فيرو، مرجع سابق، ص 153.

86- ابن غلبون، مرجع سابق، ص 198.

87- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 176.

88- نفس المرجع، ص 57.

89- خليفة محمد التليسي، مرجع سابق، ص 102.

90- شارل فيرو، مرجع سابق، ص 163.

91- نفس المرجع، ص 159.

92- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 65.

93- نفس المرجع ، ص 137.

94- جورجو كابوفين، مرجع سابق ، ص44.

95- ابن غلبون، مرجع سابق، ص 223.

96- جون رايت: تاريخ ليبيا منذ اقدم العصور، ترجمة عبدالحفيظ الميار و احمد اليازوري،(طرابلس، دار الفرجاني، د.ت)، ص 96.

97- جان كلود زليتز، مرجع سابق، ص 281.

98- شارل فيرو ، مرجع سابق، ص 210.

99- خليفة محمد التليسي، مرجع سابق، ص 104.

100- شارل فيرو ، مرجع سابق، ص 203.

101- ماساي، مرجع سابق، ص 22.

102- نفس المرجع ، ص 73.

103- كونستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 187.